المفهوم الفني واللاهوتي للايقونة المسيحية
(ايقونة من المتحف العراقي انموذجاً)

د. زينب عبد الله هلال

منقبة اثار / الهيئة العامة للاثار والتراث

قبل الولوج في دراسة تفاصيل الايقونة موضوع البحث ، لابد لنا من تعريف كلمة الايقونة ودلالاتها في الفن المسيحي ، كي يتسنى للقارئ فهم الموضوع من جميع جوانبه كون هذه الكلمة تحمل اكثر من دلالة وقد يسبب ذلك نوع من الارباك لدى المتلقي .

الايقونة في الفكر المسيحي

تعني كلمة ايقونة في الفكر والفن المسيحي (الصورة) وهي لفظة مأخوذة من الكلمة الاغريقية (Eikon) ، وتعد الكنيسة الارثوذكسية اول من استعملها واطلقها على الصورة الدينية التي تنفذت في الغالب على الالواح الخشبية [١] ، اوقد تكون منحوتة اومنقوشة على مادة كريمة كالعاج ، الذهب ، الفضة المرمر والمينا) وترجع تقنيتها الفنية الى فن المصريين القدماء لتزيين قبورهم بصورة الشخص المتوفى [٢] .

والايقونة هي صورة مقدسة ، تحمل البشرى الجمالية لحضور المقدس بين الشعب ، وان لها قدسية متسامية للشخوص والمفردات المنفذه عليها ، ولا تعد الصورة ايقونة اذا ما نفذت الاشخاص الارضيين وان كانوا ذوي صفة دينية انما تكون مسودة للواقع ومحاكاة مباشرة وليست ايقونة .

لم يكن الفن المسيحي لا سيما في البدايات المبكرة مجرد متعة للعين انما كان هدفه الارشاد والوعظ [٣] ، فلم يعد السيد المسيح يصور في جمال هيئة بشري عذب ، بل اصبح تفيض منه الهيبة والاجلال [٤] .

وبعدما اصبح الاقبال شديداً على اقتناء الايقونات في الكنائس والبيوت ، انشأت مدارس خاصة نظامية لها قوانين لرسم الايقونات في مواقع متعددة كان اكثرها اهمية في بيزنطة . وكانت هذه المدارس في اغلب الاحوال في الاديرة الكبرى التي ترعى الفن المقدس ، وكان هناك رهبان يعملون في هذه المدارس ترقى منتوجاتهم في بعض الاحيان الى مستوى الموهوبين ، وقد جمعت قواعد وقوانين الرسم الايقوني في كتب تعليمية اهمها كتاب (جبل اثوس المصور) [٥] .

اعتبرت الايقونات في الكنائس الشرقية ذخائر مقدسة طقسية وليست عملاً فنياً ولا تخضع لوسائل الفحص العلمي الدقيق فضلاً عن ان عدداً كبيراً منها مغطى بتراب الزمن او بغلاف فضي [٦] .

المفهوم اللاهوتي للايقونة

ان لاهوتية الايقونة ، تأسست الى ما جاء في المجمع المسكوني المقام في نيقيا سنة (٧٨٧م) : (ان الكلمة صار جسداًوحل بيننا) [٧] ، وفي سنة (٨٦٩) عاد المجمع المنعقد في القسطنطينية واعترف بايمان اباء مجمع نيقيا المسكوني السابع ، مبيناً مفاعيل الصور المقدسة في حياة المؤمنين والاكرام الواجب لها ، قال في قراره الثالث [٨] :

((يجب ان نكرم ايقونة سيدنا يسوع المسيح المقدسة على نحو كتاب الانجيل المقدس ، لانه كما ان كلام الاسفار المقدسة يقودنا الى الخلاص ، كذلك الايقونات تؤثر فينا بألوانها – والكل اميين كانوا ام متعلمين يجنون منها فائدة .....))

اذن ان الايقونة وان كانت من عمل المصور او ارسام ليست ابتداعه وتجلي شعوره الشخصي ، ولذلك فمن يزاول هذا العمل ان يخضع لمعتقد الكنيسة ، وان السواد الاعظم ممن زاولوا هذا الفن كانوا مثال للزهد والتقشف والحياة الملائكية ، لان هذا الفن روحي صرف يعبر لنا عن فكرة لاهوتية [٩] ، وان ما يمثله الفنان هنا ويوحيه للناظر هو ذلك الجسد الروحاني الذي تكلم عنه بولس الرسول في رسالته الاولى الى اهل كورنثس ((من الاجساد ما هو سماوي ومنها ما هو ارضي)) [١٠] .

طريقة تنفيذ الايقونة

ان الايقونة بصفتها نافذة على المطلق وهي ثمرة عمل طويل يتطلب الصبر والخبرة والموهبه ، فاختيار المواد اللازمة للايقونة يجري وفقاً لشروط محددة . فيجب ان تكون هذه المواد طبيعية وان تأخذ من المعادن او النباتات او مواد عضوية اخرى [١١].

ارتكزت تقنية رسم الايقونات منذ البداية على اجراءين مهمين نشأ منذ القدم وهما :

اولاً : الرسوم الشمعية المثبتة حرارياً : وتتم هذه الطريقة بمزج خضاب (مساحيق) الالوان مع شمع النحل ممزوج بقليل من الزيت . وبعد وضع الالوان يتم الدمج بينها بواسطة مادة حارة تفرك فوقها [١٢] .وقد استخدمت هذه الطريقة في رسم بورتريهات الفيوم وهي صور شخصية ملونة لنساء ورجال واولاد ، كانت توضع على وجه تابوت المومياء التي وجدت في مدينة الفيوم المصرية وتعود الى القرن الثاني اثناء الاحتلال الروماني لمصر [١٣] .

ثانياً : الرسوم المسماة المعدلة او التمبرا : وبهذه الطريقة تمزج الالوان وتخفف بالماء والخل ،مثل صفار البيض او الصمغ العربي ويبلغ من الدقة اكثر من الطريقة الاولى ، ويتميز التصوير بهذه الطريقة انه لا يتعفن بمرور الزمن ولا يصيبه الاصفرار بفعل عوامل البيئة .

اما مراحل انجاز هذا النوع من الايقونات ، فتبدأ باختيار الخشب ، وطريقة تقسيم الشجرة ، ثم تحضير اللوحة مع القماش ،والطبقات التحتانية . وبعد الرسم التخطيطي يوضع اولاً الذهب خلف الايقونة . بطريقة معينة يمكن بها التلميع ويبدأ الرسم نفسه مع الالوان الغامقة ثم الالوان الخفيفة ، واخيراً في الايقونات المتأخرة بالخطوط الرفيعة لتشدد الضوء على الوجه ، ثم تطلى الايقونة بالبرنيق (ورنيش) الزيتي [١٤] .

وصف الايقونة

تعد الايقونة الانموذج موضوع الدراسة واحدة من مقتنيات مخازن المتحف التراثي المصادرة المتعددة (صورة رقم ١) ، ادرجت ضمن الرقم المتحفي (١١٣٣) م ث ع ، وابعادها (٢٧ × ٢٢ × ٢،٥ سم) [١٥]، اما اسلوب تفيذها فهو بيزنطي كون طريقة التنفيذ تتسم بنوع من السطحية وقلة التفاصيل التعبيرية وهذه سمات الاسلوب البيزنطي في تنفيذ الايقونات . كما تتسم الايقونات البيزنطية بكثرة السرد القصصي الديني ، ولا تخلو الحركات من الانفعال والعاطفة وان كان غالباً بعيد عن التعمد لانها افكار تجسد العبادة والتعاطف والصلاة ومشاعر الاسى ، وان هذا التجسيد بكل ما له من تآلف في عالم اللامحدود ، يفسر كيف ان المطلق قد حوصر بالجسد الانساني الزائل ضمن محدودية تامة متأطراً بمقاييس الجسد البشري صنيع الله [١٦] .

كما نلاحظ في الايقونة انعدام الوزن والتحليق في سماء للوحة وعدم ثبات اقدام الشخوص على الارض ، كما ان استخدام الصبغة الذهبية في تنفيذ الايقونات البيزنطية يجعل المنجز يهمش الحياة اليومية الطبيعية ويسمو في عالم المثال ، كما يلاحظ ان حجم الشخوص يتناسب مع اهميتهم الدينية ، كما نلاحظ استخدام الالوان البراقة والتضاد اللوني مما يعطي انطباع عن السمو والتألق .

تظهر السيدة العذراء نصفياً مواجهة ترفع يدها اليمنى ، مشيرة الى ابنها الجالس على ساعدها الايسر ، ترتدي ثياباً فضفاة ملونة بالاحمر والبرتقالي ، وعلى رأسها هالة رمز القدسية ، كما ترتدي على رأسها تاجاً ، وتظهر ملامحها حزينة وتفسيروفق الفكر المسيحي بأنها كانت تعلم بان ابنها سوف يصلب ويعذب .

كما يظهر السيد المسيح وهو يرتدي ملابس فضفاضة ملونة بالاخضر والاصفر ، ويرتدي على رأسه تاجاً وقد احيط بهالة رمز القدسية لكنها تختلف عن هالة والدته بأن هالة السيد المسيح تحمل صليباً .

يقف على يمين اللوحة قديساً من المرجح انه مار كوركيس [١٧] ، يرتدي ثياب الفرسان حاملاً سيفاً وعلى رأسه هالة القديسين ، بينما تقف على يسار اللوحة قديسة ترتدي ثياباً سوداء لا يعرف على وجه التقريب من تكون .

ازدانت زوايا اللوحة باشرطة زخرفية نباتية تتألف من فروع نباتية وعناصر كأسية ثلاثية تتوسطها رموز الصلبان من النوع اليوناني الذي يتسم بتساوي اذرعه وهو من اقدم اشكال الصليب .

الرموز الدينية الواردة في الايقونة

اولاً : هالة القداسة

مرجع هذه الكلمة من كلمة الذهب في اللاتينية ، وترمز الى الالوهية والقوى العليا ، وهي تحيط عادة بجسد ورأس المسيح والعذراء والقديسين ، وتتخصص الهالة ذات الخطوط الثلاثة بالاله الرب واحياناً تصور خلف رأس السيد المسيح ، وقد تظهر على شكل مثلث بدل الدائرة ، وقد وجدت خلف رأس المسيح في الايقونة موضوع البحث .

ثانياً : التاج

يستعمل هذا الرمز كمقاربة فكرية للسلطة الملكية [١٨] ، ويدل على تاج الحياة الذي يمنح الحياة الجديدة . وهذا ما نجده بعد التعميذ ان يقوم القس بوضع التاج على رأس المتعمذ بعدما يمنحه التعميذ الحياة الجديدة .

ثالثاً : رمز الصليب

الصليب اداة عذاب وموت ولا يعلق عليها الا العبد الابق ، الا انه يشير في المسيحية الى الفداء المتحقق بالمسيح ، ويذكرنا شكل الصليب برسالة المسيح الممتدة الى جهات العالم الاربعة بلا استثناء ، والصليب اشكال مختلفة ، وقد ورد لدينا في الايقونة الصليب اليوناني ذو الاذرع الاربعة المتساوية [١٩] .

الرموزاللونية الواردة في الايقونة

ترمز الالوان في الفن المسيحي الى عدة مدلولات ، فلكل لون منها لالة دينية و دنيوية تدل على مفهوم معين وسنأتي في هذه الفقرة من البحث على تفسير الالوان التي وردت في الايقونة وكما يلي :

اولاً : اللون الاخضر : وقد ورد هذا اللون في الايقونة في التنفيذ اللوني لثياب السيد المسيح وثياب القديس مار كوركيس وطعم ثياب السيدة العذراء ، ويدل هذا اللون في الفن المسيحي على الايمان

وعلى اللذين يحترمون الحياة بكاملها ، في كل انسان ، وفي كل زمان ، وهو لون الثروة والافلاس ، ولون الحظ وسوء الحظ على السواء ، وهو رمز المزروعات الحية والخصبة في فصل الربيع [٢٠] .فأن تقدم لاحد شيئاً اخضر اللون وبخاصة في الصباح معناها انك تجلب له الحظ السعيد بحسب الطقس اللاتيني ، والاخضر هو لون الثالثوث المسيحي ، وهناك جانب ايجابي لهذا اللون كونه يؤثر على الجهاز العصبي ويساعد على الاسترخاء [٢١].

ثانياً : اللون الاحمر : ويرمز الى النار ، وقد ورد اللون الاحمروالبرتقالي في لباس السيدة العذراء ، و اللون الاحمر يدل على الحركة والنشاط وهو لون الدم مكافئ للحياة ، كذلك يرمز الى دم المسيح [٢٢] و الى الحب والقوة ، والغضب ، وهو لون الشهادة المسيحية ، وكما ذكرنا فان اللون الاحمر يذكر بالدم ، علامة الحياة والجراح والقسوة والنار وهو رمز للخطيئة (تعالوا نتناقش ، يقول الرب ، لو كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج ، ولو كانت حمراء كالارجوان تصير كالصوف) [٢٣] ، ويرمز كذلك للغنى والملك والشرف والسلطة .

ثالثاً : اللون البرتقالي : وقد ورد في تلوين ثياب السيدة العذراء ، وهو لون مفرح وتناغمي ومتآلف ، ويرمز الى الحب ، والصفاء ، والسلام ، واللطافة ، والابداعية بنسبة اقل من الاحمر [٢٤] .

رابعاً : اللون الاسود : وقد ورد هذا اللون في تلوين ثياب القديسة التي تقف على يسار الايقونة كما اشرنا انفاً ، ويرمز اللون الاسود الى الموت والزمان ، وهو لون يوم الجمعة العظيمة في المنظور الطقسي [٢٥] . وهو لون الالوهية السرية والقبور ، وعباءات الرهبان .

خامساً : اللون الاصفر : وقد ورد هذا اللون في تلوين لباس السيد المسيح ، ويرمز للهواء ، وهو لون الذهب والشمس ، وان رمزيته مزدوجة : الجانب الايجابي منه يميل الى البهجة ، والنور ، والشرف ، والاخوة ، والوضوح ، واللطافة . اما الجانب السلبي منه فيرمز الى الفساد ، والانحلال ، والمرض [٢٦] .

سادساً : الصبغة الذهبية : وقد ورد في اغلب ارضية الايقونة وفي الهالات المقدسة ، ويرمز الى الروح القدس ، والى نور مجد عالم القيامة والملكوت ، ونود الاشارة الى ان الالوان ليست مناظرة الى حقيقتها دائماً وانما تحدد بالفكرة التي تجسدها [٢٧] .

المميزات العامة للايقونة

تميزت الايقونة موضوع البحث حالها حال باقي الايقونات بعدة مميزات ولعلها ميزت اغلب الايقونات السيحية منها :

- الغاء المنظور لانه لانه وهم لتحديد المكان والعمق في اللوحة فالكبير قريب اما البعيد فيصغر .
- العيون المفتوحة لانها ثابته وازلية .
- الانف يكون بقياس معقول .
- نلاحظ كبر الجبين لانه مركز العقل والحكمة .
- الفم مسدود بصمت وتأمل .
- الاصابع واليدين طويلة في حالة انجذاب دائم لله .

المصادر والمراجع

الكتاب المقدس .

١- اشنبغلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج١ ، ترجمة : احمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت.

٢- الجميل ، الخوري ناصر ، الرموز المسيحية ، بيروت ، ٢٠٠٨ .

٣- صبري ، كنيسة مار كوركيس الكلدانية ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٩٣ .

٤- علام ، نعمت ، فنون الشرق الاوسط في الفترات الهيلنستية – المسيحية – الساسانية ، دار المعارف ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٥- عكاشة ، ثروت ، الفن البيزنطي (موسوعة تاريخ الفن) ، ج١١ ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣ .

٦- المخلصي ، الاب منصور ، نار وروح مدخل الى الفن المسيحي ، شركة الطيف للطباعة ، بغداد ، ٢٠١٠ .

٧- وهبي ، الارشمندريت انطون ، الصورة المقدسة او الايقونات ، منشورات المكتبة البولسية ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٩ .

٨- نعوم ، هشام ، الاعمال الكاملة للاب بطرس حداد ،ج١ ، مكتبة عدنان ، بغداد ، ٢٠١٧ .

٩- هاوزر ، ارنولد ، الفن والمجتمع عبر التاريخ ، ترجمة : فؤاد زكريا ، ج١ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٠- مقابلة شخصية مع الشماس بسام صبري مدرس الفن في كلية بابل للفلسفة واللاهوت بتاريخ ١/ ٩/ ٢٠١٨ .

صورة رقم (١)

هوامش البحث

١ – عكاشة ، ثروت ، الفن البيزنطي (موسوعة تاريخ الفن) ، ج١١ ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣ ، ص ١٦٥ .

٢ – المخلصي ، الاب منصور ، نار وروح مدخل الى الفن المسيحي ، شركة الطيف للطباعة ، بغداد ، ٢٠١٠ ، ص٣٨ .

٣ – هاوزر ، ارنولد ، الفن والمجتمع عبر التاريخ ، ترجمة : فؤاد زكريا ، ج١ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٥١ .

٤ – عكاشة ، المرجع السابق ، ص١٦٨ .

٥ – المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

٦ – المخلصي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

٧ – انجيل يوحنا ، ١ / ١٤ .

٨ – وهبي ، الارشمندريت انطون ، الصورة المقدسة او الايقونات ، منشورات المكتبة البولسية ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٥٥ .

٩ – وهبي ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

١٠ – رسالة بولس الاولى / ١٥ : ٤٠ .

١١ – المرجع نفسه ، ص ٤١ .

١٢ – المرجع نفسه ، ص ٤١ .

١٣ – علام ، نعمت ، فنون الشرق الاوسط في الفترات الهيلنستية – المسيحية – الساسانية ، دار المعارف ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣٤ .

١٤ – المخلصي ، المرجع السابق ، ٤١ .

١٥ – سجلات مخازن المتحف التراثي .

١٦ – اشنبغلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج١ ، ترجمة : احمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ص ٧٥٢ .

١٧ – هو من القديسين الشرقيين الفلسطنيين الذي اشتهر بعبادته ، وكان من اصل شريف ، ولد في (٢٨٠ م) في بلدة اللد الفلسطينية والتي تقع شمال مدينة القدس من ابويين مسيحيين كانا من اشراف قومهم ، اشتهر مار كوركيس بعدما قطع رأسه من قبل الملك دوقلسيانوس حول ذلك ينظر : قجبو ، صبري ، كنيسة مار كوركيس الكلدانية ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٩٣ ، ص ١٦ ، ٤٤ .

١٨ – ذلك السعيد القدير وحده ، ملك الملوك ورب الارباب ، له وحده الخلود ، رسالة بولس الرسول الى اهل طيمثاوس : ١ : ١٥ – ١٦ .

١٩ – نعوم ، هشام ، الاعمال الكاملة للاب بطرس حداد ،ج١ ، مكتبة عدنان ، بغداد ، ٢٠١٧ ، ص ٢٦ – ٢٧ .

٢٠ – الجميل ، الخوري ناصر ، الرموز المسيحية ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص ١٨٨ .

٢١ – المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

٢٢ – مقابلة شخصية مع الشماس بسام صبري مدرس الفن في كلية بابل للفلسفة واللاهوت بتاريخ ١/ ٩/ ٢٠١٨.

٢٣ – الكتاب المقدس ، اشعيا ، ١ : ١٨ .

٢٤ – الجميل ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

٢٥ – المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

٢٦ – المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

٢٧ – – مقابلة شخصية مع الشماس بسام صبري مدرس الفن في كلية بابل للفلسفة واللاهوت بتاريخ ١/ ٩/ ٢٠١٨ .